

ماذا هي نسبيّة الزمن؟ هل الزمن حقيقة مطلقة أم أمر يرتبط بعالم المادة؟

ما معنى نسبيّة الزمن في عالم المادة؟ ولماذا يُعدّ الزمن أمرًا اعتباريًا؟

هل شعرت يومًا أن الوقت يتمدد كأنه دهرٌ في لحظات الانتظار، بينما ينكمش كلمح البصر في لحظات السعادة؟ هذه التجربة عاشها كل منا، حيث نجد أنفسنا نسبح في بحر الزمان، نركض في مساراته ونظن أنه نهرٌ جارٍ لا يتوقف، يتدفق من الماضي إلى المستقبل بثبات. لكن هل هذه الصورة التي نرسمها في مخيلتنا تعكس حقيقة الزمان؟

لو تأملنا قليلاً بعمق، لأدركنا أن الزمن ليس شيئاً ثابتاً لا يتغير ولا يتبدل أو حقيقياً على الدوام، بل هو في جوهره مجرد انعكاس شعورنا وظروفنا المحيطة. في الحقيقة، إنّ ما نطلق عليه "الزمن" ليس إلا مفهوماً اعتبارياً.

من منظور علم الإنسان في الرؤية الإسلامية، يُعتبر الزمان مفهوماً نسبياً مرتبطاً بالعالم المادي، لا يمكن فهمه بمعزل عن الإنسان وبيئته. هذه النسبية تتجلى بوضوح في تجاربنا اليومية، حيث يختلف إدراكنا للزمن باختلاف مراحل حياتنا وسياقات وجودنا.

لنأخذ مثلاً عملياً: بالنسبة لطفلٍ حديث الولادة، يبدو اليوم وكأنه دهرٌ لا ينتهي، لأنه لم يطور بعد إحساساً بمرور الوقت. في المقابل، يمر نفس اليوم كالبرق على رجلٍ في الأربعين، إذ يكون ذهنه مشغولاً بهوموم الحياة وأعبائها. أما الشيخ التسعيني، فيرى في كل لحظة كنزاً لا يُعوّض، لأنه يدرك أن الوقت بات محدوداً ولا يعود إلى الوراء.

فهل تظنّ أنّ الزمن يعمل بالطريقة نفسها في كل سياقٍ زمني، من رحم الأم إلى عالم المادة، وحتى الآخرة؟ أحد أفضل السبل لفهم نسبيّة الزمن، هو مقارنة السياقات المختلفة للوجود. فعندما نتأمل في مراحل حياة الإنسان عبر هذا الكون، نجد أنّ الزمن في كلّ مرحلة له معنى ووظيفة تختلف عن سواها. تابع معنا، ففي هذا المقال نعتزم التوسّع في هذا المفهوم، واستكشاف معناه في الأزمنة المختلفة للوجود.

رحم الأم: نموّ مدهل في زمن قصير

رحم الأم هو أول مهدٍ يختبر فيه الإنسان معنى الحياة. ففي هذه الفترة التي لا تتجاوز تسعة أشهر، تتكوّن جميع أعضاء الجسد، ويتحوّل كائن بسيط لا يُرى بالعين المجرّدة إلى إنسانٍ متكامل بكل تفاصيله. بينما لو قضى هذا الكائن أضعاف هذا الزمن في الحياة الدنيا، لما تكوّن فيه حتى مفصل إصبع، فضلاً عن إنسانٍ كامل!

لذا فإن كل يوم في الرحم يساوي سنين في العالم الخارجي لا من حيث البناء فحسب بل من حيث الهشاشة أيضاً. فأى خلل يصيب الجنين في هذه المرحلة كعيب خلقي أو اضطراب جسدي لا يمكن تعويضه بعد الولادة بسهولة. فمثلاً تغيرات كروموزومية تحدث في ثوان معدودة داخل الرحم قادرة على التسبب في اختلالات جسدية أو عقلية شديدة يصعب إصلاحها بعد الولادة إن لم يكن مستحيلاً. هذا التباين في سرعة الوقت وأهميته داخل الرحم وخارجه يجسد بوضوح مفهوم النسبية في الزمان. فالزمان هنا ليس مجرد وحدات ثابتة بل نسيج حي يتغير وزنه وقيّمته بحسب المكان والظروف.

الدنيا رحماً: مهد الاختيار والتكامل

بمجرد أن يولد الإنسان، ينتقل من رحم الأم إلى رحمٍ أوسع يُدعى "الدنيا". ورغم أنّ قدراتها الخلقية لا تقارن بتلك التي للرحم الأول، إلا أنّ أثرها في بناء الإنسان المعنوي لا نظير له. فبحسب الروايات، ساعة واحدة في الدنيا تعادل آلاف السنين في الآخرة من حيث الأثر والبناء¹، وهذا يعني أن لحظة توبة صادقة، أو عمل صالح، أو قرار سليم، قد يغيّر مصير الإنسان الأبدي. وهي فرص لا تتوفّر بعد الموت. وكما أن أيّ عيبٍ يُصيب الجنين في رحم الأم يصعب تعويضه لاحقاً، فإنّ من يتعرّض قلبه أو روحه للضرر بسبب الغفلة أو الذنوب في هذه الحياة، دون أن يسعى لإصلاحه، سيجد أن العلاج في الآخرة أصعب بكثير، بل قد لا تكون هناك أيّ فرصة للإصلاح أصلاً. فزمن الدنيا هو زمن الفرص، أما في الآخرة فلا مكان للتغيير.

¹ «وإن ساعة من الدنيا خيرٌ من ساعاتٍ في الآخرة، لأنه يزيج بساعةٍ ذنوبيةٍ آلاف الساعات، وربما اشترى بها الخلد في الجنة.» (مدرسي، محمد تقي، من هدى القرآن، بيروت، دار القارئ، 1429 ق، الطبعة الثانية، ج 10، ص 282)

إن نسيبة الزمن في هذه المرحلة تبين لنا بجلاء أنّ كلّ لحظة في الدنيا تحمل القدرة على تحويل مصير الإنسان الأبدي.

الآخرة بوصفه رحماً مجرد من الزمن

حين ندخل عالم الآخرة، سينهار مفهوم الزمان كما نعرفه وسندخل فضاءً أبدياً لا يعرف حدوداً لليل أو نهار، ولا ماضياً أو مستقبلاً. بل كل شيء حاضر في آنٍ واحدٍ، وتتوقف قدرة الزمان على البناء أو التوبة أو التغيير ولا مجال للعمل أو العبادة أو التعويض؛ فدور الزمان سوف ينحصر في كشف نتائج الأفعال، لا في صنعها. إن الزمان، الذي كان في الدنيا أداةً للبناء، سوف يُصبح في الآخرة مجرد شاهدٍ صامتٍ على ما تم بناؤه. وإن الجنة والنار، بكل ما فيهما، تتجسدان كحقيقتين أبديتين لا تتزعزان. روي أنه «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يدبج، ثم يُنادي مُنادٍ: يا أهل الجنة! لا موت، ويا أهل النار! لا موت؛ فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنيهم»².

هذا الخلود الأبدي يكشف لنا أن الزمن لا وجود حقيقي له إلا في عالم المادة، وأنه بمغادرة هذه الدنيا، يتحرر الإنسان من قيد الزمن إلى الأبد.

حقيقة الزمن في العوالم العليا

في العوالم العليا من الوجود، يفقد الزمان معناه كتيارٍ مستمرٍ ومحدودٍ، كما نعرفه في عالمنا المادي متتابعاً من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل. كلما ارتقينا بعيداً عن قيود المادة، تلاشت أغلال الزمان والمكان ويذوب كل شيء في "حاضرٍ مطلقٍ" لا يتجزأ. عند الحديث عن الذات الإلهية، يصبح الزمان مفهوماً عديم المعنى تماماً. فالله، بكونه المتعالي عن كل ما يُدرکه الإنسان، يتجاوز كل الأطر الزمنية التي تحكم تجربتنا الوجودية. في حضرته، لا بداية ولا نهاية، ولا تغيير ولا تحول.³ فهو ليس محكوماً بزمانٍ أو مكانٍ، ولا يخضع لقيود البداية أو الخاتمة. كل شيء في حضرته الإلهية حاضرٌ دون حاجةٍ إلى مرور الوقت. هكذا، يتبين أن الزمان ليس سوى اعتبارٍ في العوالم الدنيا، يتلاشى

² عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، متقي هندي، علي بن حسام الدين، كثر العمال في سنن الاقوال والافعال، ج 14، ص 515

³ . سورة الحديد؛ الآية 3

تدرّجياً مع الارتقاء في مراتب الوجود، حتى يختفي تماماً في الحساحة الإلهية. إنه مفهوم نسبيّ، يذوب في المطلق، ويُمحى في حضرة من لا يُحيط به زمانٌ أو مكانٌ.

حجاب الزمن: قيدٌ يمنع إدراك الحقيقة

بعد أن اتضحت لنا نسبية الزمن وأهميتها، يتعين علينا أن نستكشف ما يُعرف بـ"حجاب الزمن"، ذلك القيد الناشئ عن سوء فهم طبيعة الوقت أو الزمن. فعندما نعجز عن إدراك نسبية الزمن، يتحول هذا الجهل إلى حجابٍ يحجبنا عن الحقيقة ويعيق مسيرتنا نحو التكامل.

معظمنا يعيش أسيراً للماضي أو المستقبل، عاجزاً عن تجاوز هذا الإطار. فنعيش أسرى لوهمٍ زمنيّ لا يُجسّد الحقيقة، ويجعلنا نرى الواقع من زاويةٍ محددة، كأننا أجنّة داخل رحمٍ مغلق، لا نعلم بوجود عالمٍ أوسع خارجه. بينما في العوالم الوجودية العليا، تتلاشى هذه القيود، وتتجلى الحقيقة كاملةً بلا حواجز. من يستطيع التحرر من أغلال الدنيا، يمكنه أن يختبر الزمان بشكلٍ مختلفٍ. فالفهم الصحيح لنسبية الزمن يفتح لنا باباً نحو رؤيةٍ أعمق للحقيقة وغاية الحياة. وقد بلغ بعض أولياء الله والعرفاء الكبار ما جعل مفهوم الزمن يتلاشى من إدراكهم، فصاروا يعيشون لحظة الخلود، ويذوقون طعم الأبدية في قلب اللحظة الواحدة.

في هذا المقال، بدأنا بمناقشة نسبية الزمان، موضحين أنه ليس كياناً ثابتاً، بل يتغير وفقاً للظروف والسياقات التي نعيشها. ثم، من خلال أمثلةٍ من رحم الأم، والدنيا، والآخرة، بيّنا كيف يختلف إدراك الزمان في كل مرحلةٍ من هذه المراحل. هذه الرحلة الفكرية تهدف إلى تحرير العقل من قيود الزمان، وفتح آفاقٍ جديدةٍ لفهم الوجود.